قصة

ليلة في السجن

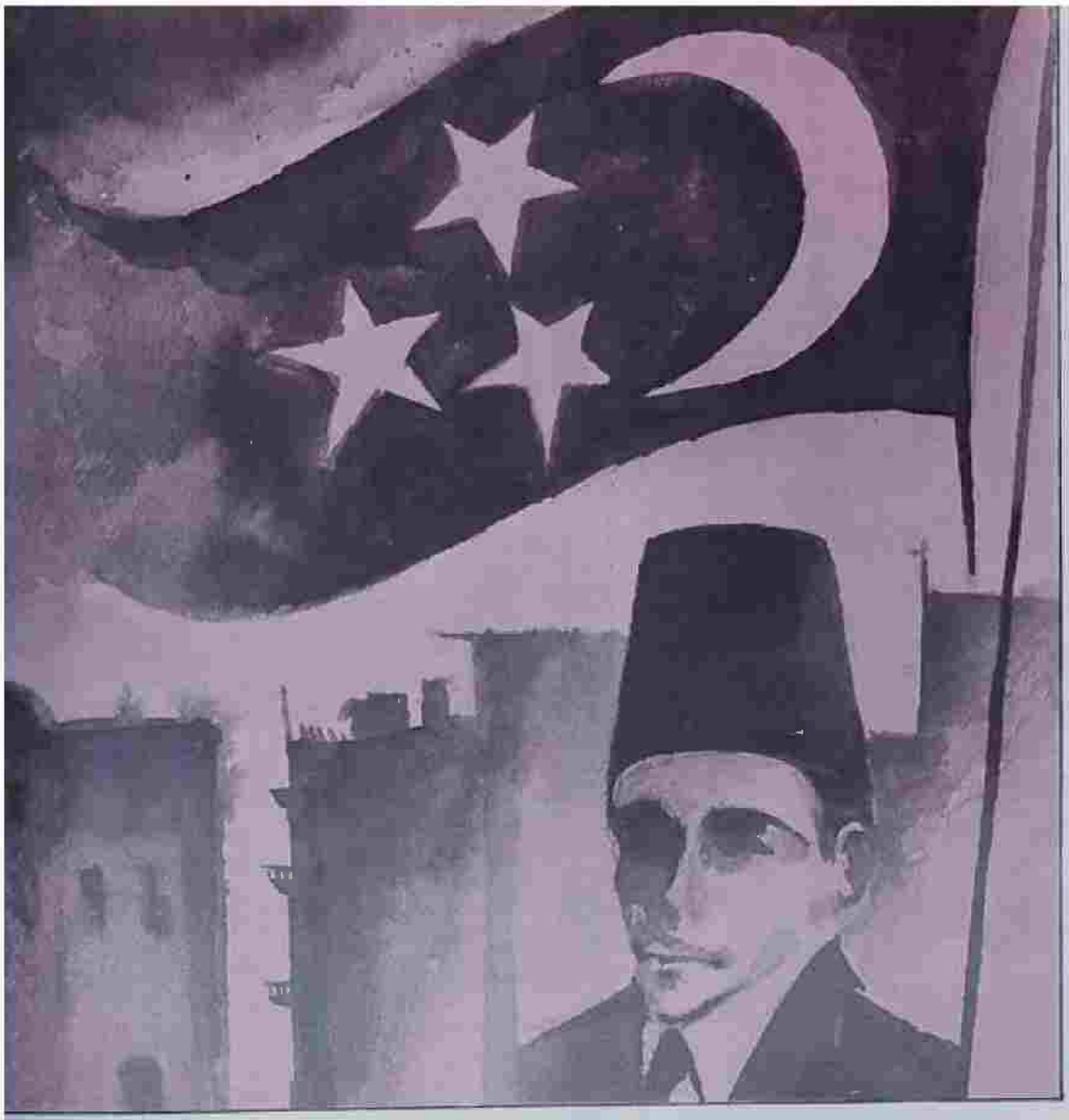

د. حسين مؤنس

هذه الحكاية نبدأ في تاريخ محدد : الساعة التاسعة والثلث من صباح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٩ . أذكر ذلك التاريخ لأن الحكاية هنا موضوعها مظاهرة طلابية وماوقع فيها ومالاقاه من سجن ، وما كان في هذا السجن . المظاهرة كانت احتجاجا على تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ .

كان كل المصريين قد قبلوا في الواقع تصريح ٢٨ فبراير . وأصبحت مصر بمقتضاه مملكة يترجع على عرشها صاحب جلالة . وفيا دستور وبرلمان . ودخل حزب الوفد – وكيل الأمة – الانتخابات على أساس هذا التصريح البعيد جدا عن الاستقلال التام أو الموت الزؤام . وبدلا من الموت الزؤام فاز الوفد بالأغلبية . وتولى سعد زغلول الوزارة ووضع دستور ١٩٢٣ . كل ذلك ومازال المصريون حتى ذلك الحين يتكونون تصريح ٢٨ فبراير ويرددون قول سعد زغلول فيه إنه قيد من ذهب . قيد أو غير قيد فإننا بطبيعتنا نعرف كيف نوفق بين المستحيلات . وعند أيام قنا بمظاهرة نطالب فيها بدستور ١٩٢٣ الذي ألغته الحكومة مع علمنا بأنه جزء من القيد اللعين .

واليوم بداية هذه الحكاية – نضرب عن الدراسة ونقوم بمظاهرة استنكارا لتصريح ٢٨ فبراير .

المهم أنا كنا في الحصة الثانية . وكان الدرس في مادة الطبيعة . كالعادة كنت في الصف الأول منعما بغاية الاهتمام للأستاذ . وكنت أحب هذا الرجل لأنه كان يتحدث بهدوء ووضوح . وكان عالما حقا . وكان هو يحبني لأنني كنت من المنبهين النواطين الذين يجيبون المدرسة والدروس والمدرسين ويجلسون في الفصل في غاية الهدوء .

وفجأة في الساعة التاسعة والثلث كما قلت . سمعنا هتاف المتظاهرين من بعيد . عرفنا أن الضلال الصاحب لن يلبث أن يصل إلى مدرستنا ليأخذنا معه . كان هذا هو التقليد : نبدأ المظاهرة في المدرسة الحديوية . ثم نطوف بكل مدارس حي السيدة كأنها « مسحراتي » يوقظ النائمين . وفي مرورها تأخذ طلبة المدارس . ولاتنقضي ساعة حتى يكون ألوف التلاميذ سائرين في شارع درب الجماميز يهتفون بأي شيء تتطلبه المناسبة . في هذا اليوم كان صيحة المعركة : يسقط تصريح ٢٨ فبراير . يسقط الاستعمار . نحيا وتحيا مصر . معظمة . تموت وتحيا مصر .

وأقفل المدرس دفتره وقال لي :

– لافائدة . ضاع اليوم . .

وبعد لحظة صمت قال لي :

– لاأحد كتبك معك . أفضل درجك على كتبك ودفاترك فلا يدري أحد ماذا سيحدث في المظاهرة .

وقال جاري في الفصل :

– لا . أنا آخذ كل كتبي . وكيف أذاكر في البيت بدون كتب ؟ .

وابتسم الأستاذ . فقد كان يعرف ان هذا الطالب الطويل العريض . واسمه مجاهد أمين مجاهد لايستذكر قط . وكان يعرف أنني في الحقيقة ولي أمره . فقد كان ساذجا جدا أرعيطا كما يقولون . ولم أكن أشاركهم هذا الرأي فقد كنت أحب مجاهد . لأنه تلميذ طيب القلب جدا وكريم بصورة

لاتصدق . كان يصغرني بعام ولكنه كان أطول مني بنصف متر وأعرض مني بكثير . وكانت والدته السيدة نفيسة شرف الدين زوج الحاج أمين مجاهد تعتبرني مسئولا عنه . وكانت تفيض على من كرمها وعنايتها حتى أصبح بيتهم بيتي . وكانت تريد أن تقدر لي رأيا للعناية بابنها والمذاكرة معه . ولكني رفضت لأن منبه هام كانت تفيض علي من الحب والرعاية مايزيد على أي راتب . وكنت أبيت في دارهم أكثر مما كنت أبيت في داري . وداري كانت دار عمي . كنت أعيش فيها مهملا لايكاد يحفل لأمري أحد . لأن عمي كان مريضا وزوجته كانت دنيا قطارين . وبناته الثلاث عوانس . فكيف مع هذا كله يعنى بي أحد ؟ . .

بعد دقائق كنت في تيار المظاهرة . وفقدت إحساسي بنفسي مع التطبيع . وهتفت بسقوط تصريح ٢٨ فبراير . وكان مجاهد يمسك بذراعي ويسير خلفي دون أن يهتف . فقد كان حبه مثلنا بالقول السوداني . والقول السوداني كان أشد شيء في الوجود عنده ، وهو مفضل عنده حتى على الوطن والاستقلال والدستور .

وكانت وجهتنا فيما أظن ميدان عابدين . لا أحد يعرف إلى أين تمضي المظاهرات . فقد كان هناك شبان محترفون لذلك العمل . تراهم دائما محمولين على الأكتاف وهم يهتفون والبقية تردد . كانوا يسوقوننا إلى ميدان عابدين لكي يواجهوا الملك فؤاد بمطالب الشعب . والملك فؤاد إذ ذاك كان في الأقصر يسامر مع الستر سمارت السكرتير الأول للسفارة البريطانية .

والنحاس باشا نفسه كان في أسوان لأنه كان مجهدا وفي حاجة إلى راحة كما قالت الصحف . مشى تاركا أمر الجهاد في وجاهد وللآخرين . والبركة في محترق الجهاد .

وفي مكان ما من شارع الخليج المصري وجدنا أنفسنا أمام صفوف متوالية من رجال بلوك الفجر وهم جنود أشداء عتاة . بأيديهم شومات قاسية . وعلى رءوسهم خوذات وخلفهم اللوريات . وفي ركبي الشارع كان الكونستابلات على الموتوسيكلات . وبعضهم الجليز وبعضهم أرمن وبعضهم مالطيون . هؤلاء كانوا مسلحين بمسدسات وكان منظرهم رهيبا .

وكان هذا المنظر كافيا لتبديد الجمع الحاشد . عرفت فيما بعد أن بعض المتظاهرين ساروا حتى اصطدموا بحاجز الجنود والكونستابلات ، وأن معركة دارت وجرح الكثيرون واعتلأ الجو بالصياح . وأردت التقدم ولكن مجاهد صرخ :

– إنهم سيقبضون يافلان . . .

وجرى وهو يجرني خلفه حتى تعثرت . كان يقبض على ذراعي بأصابع من فولاذ . وفي عرولته رفعت منه كتبه وكراريسه التي أصر على أحملها معه . ودحلنا حارة كانت تسمى « فطرة الذي كفر » وبالفعل لم نكد ندخل حتى وجدنا أنفسنا أمام الذي كفر . ممثلا في حائط آخر من جند بلوك الفجر والشوم في أيديهم . ووقفنا جميعا كالقطط بما في ذلك زعيمنا الذي كان محمولا على الأعناق . جعل يصيح : أنزلوني في عرضكم ! وأنزلوه وصار رعية مثلنا . وتنازل عن الزعامة لكي يفلت بجلده وكان عنده حق . فإن ضربة واحدة من شومة بلوك الفجر تكفي للرقاد في المشمش شهرا على الأقل والخروج بعاهة . وكان هؤلاء الجنود ينحدرون إلى شياطين ويضربون في عنف حيثما اتفق . لايهمهم ما يصيب المتظاهرين . وأنا نفس أصابني مرة لمسة خفيفة من طرف شومة على عاتق الأيمن دخلت بسببها المستشفى ثلاث مرات .

وأمسكوا بنا كالأرانب . ولا أدري كيف صعدنا إلى اللوريات . فقد كانت عالية جدا . ولكن الخوف يجعل الإنسان يقوم بالمستحيل دون أن يدري . وكل الذي أذكره أن مجاهدا لم يترك ذراعي قط . وعندما وقفنا في اللوري كأننا ماشية نرسل إلى المذبح كان مجاهد يبكي ويقول :

– سيقتلوننا ياناس . . رحنا في ذمة الله . الله ياحضرة الأوباشي أنا ماكنت معهم . .

وصرخ فيه الشاب :

– اخرس ياجبان . . لتكن رجلا . . كلنا يهون في سبيل الوطن .

ونظر مجاهد إلى وجهي فرآني ساكتا هادئا فسكن جأشه وكف عن البكاء وازداد ضغطه على ذراعي .

ودخل بنا اللوري في فناء الخالطة في باب الخلق . كان هناك مئات غيرنا . كانوا يفرغون شحنات التلاميذ المتظاهرين كما يفرغ لوري الرمل حمله على الأرض . ومايكاد حمل المتظاهرين يصل إلى الأرض حتى يصيح أوباشي عظيم :

– فقرا صفوفا عند الخالط يا أولاد الكلاب . ثم يقبل شاويشية ويدفعوننا في عنف حتى يرصونا صفوفا بموازاة الجدران . وبين شاويشية آخرون ويدونهم دفاتر يأخذون أسماءنا . وكانت العادة أن يقول التلميذ المقبوض عليه أي اسم إلا اسمه الحقيقي وقت فهم إن اسمي عبد السميع عبد السميع زهران . فقال الشاويش :

– عبد السميع قطران . . ؟

– نعم قطران .

أما مجاهد فبكل غباء قال : مجاهد أمين مجاهد ابن الحاج أمين مجاهد صاحب مخابز مجاهد .

وضحك الجميع وقال :

– لماذا يضحكون ؟ . .

– مش مهم . . ماحصل حصل . .

وظلت اللوريات تفرغ « رمل » التلاميذ حتى بعد الظهر . وأصبح حوش الخالطة كتلة من اللحم البشري .

وصاح أوباشي :

– أدخلهم التخشيبة . .

– التخشيبة امتلأت تماما . .

– إذن فضعهم في الزنازين . .

– الزنازين ملأى . .

– إذن فماذا نعمل ؟

– اسأل الكونستابل حلوف . .

وهذا الكونستابل كان مالطيا اسمه كما عرفت ، فيما بعد هاروف . وكان والحق يقال أرحم بنا من الأوباشية ، فقد قال :

– دعهم في الهواء . . الدنيا شتاء والشمس كروسة . . لو أدخلتموهم في الغرف فسطوا . .

رشيا قضينا هذا الجمع . أسلم كل منا مصيره للمقادير ووقف صامتا . وجاءت الساعة الثالثة بعد الظهر وجاع هذا الحشد الهائل . وقال طالب :

– احنا جعانين ياحضرة الأوباشي .

– ونطعمكم أيضا ؟ تعملون كل هذه الشوشرة ثم تطالبون بالأكل . . هذه المرة مشمولون جميعا من الجوع حتى نستريح منكم . .

وبدأت أشنرة تتصاعد : عاوزين ناكل . عاوزين ناكل ! وأصبح الخلاف بهذه العبارة بين الأرض وسماء الخافقة الثمالكة . . وصاح الكونستابل حلوف . . :

– كل واحد رغيف عيش حاف . . يا الله يا شاويش أنت وهوه . .

وفرحنا جميعا ببشرى الرغيف الحاف . وجعلنا ننتظر في فرح شديد . وأخيرا وصل الخبز . وتولى الكونستابلات التوزيع .

ووقفنا جميعا نأكل الخبز في نهم . وفجأة برز من الصفوف شاب غريب الهيئة . لقد التهم رغيفه في دقيقتين . ثم وقف والعيون شاخصة إليه . كان شكله عجيبا . كان صغير الحجم . ولكنه كان يلبس طربوشا ارتفاعه للاثون سنتيمترا على الأقل . وكان يميل الطربوش على طريقة مصطفى كامل . ويلبس على عينيه نظارة ذات إطار معدني على طراز محمد فريد . ويمسك بيده عصا سعد زغلول . وكانت ملابسه رسمية كاملة . بدلة سوداء ذات صديري وربطة رقبة أسود يدور حارج ياقة منشاة وحذاء أسود لامع يغطي وجهه « جزمة » أبيض . وكان يضع أصبعيه السبابة والإبهام في جيب الصديري . وكالبة الساعة تمتد في قوسين من جيب الصديري إلى الجيب الآخر . وبعد أن استقرت أنظار الجميع قال :

– في سبيل مصر يهون كل شيء . حتى العيش الحاف . ولكننا لن نخاف قوات الاحتلال . وأرجوكم يا إخواني أن تتضامنوا وتقفوا صفا واحدا . فقد قال مصطفى كامل : إن الموت في سبيل مصر حلوة . .

وبدأت الهتافات تتعالى . فأشار إلينا وسكتنا . واسترسل يقول :

– لا أريد هتافا . أريد ثباتا . لتتحملوا في شجاعة ولتتمسك بمطالب الوطن حتى تتخلص من الاحتلال .

وأسرع شاويش نحوه بالشومة ، فلم يتحرك ولا كترث ، ولكن أحد الكونستابلات أمر الشاويش ألا يضرب وطلب إليه لزوم الحدوء ، وقال هذا الشاب كلاما كثيرا خلاصته الثبات إلى الموت وليحي تضامن الطلبة .

وقال مجاهد :

– من هذا الولد الذي سيأتينا بحصية ؟

وهمس في أذنه طالب :

– إنه زعيم مدرسة الخديوي إسماعيل وليس لجنة شباب الحزب الوطني .

– وما اسمه ؟

– لا أدري ولكننا نسميه مصطفى كامل محمد فريد .

والحق أن مصطفى كامل محمد فريد كان شابا محترما جدا كان يتكلم بحساب وبكل هدوء ويقف محترما جدا . في وقت قصير سيطر على ذلك الجمع الحاشد . أحسسنا كلنا بالاطمئنان كما يحس قطيع ماشية بالاطمئنان لأنه يسير خلف زعيم من جنسه ، وتطاير الهمس من فم لأذن : لا تخافوا : معنا مصطفى كامل عضو اللجنة المركزية لشباب الحزب الوطني . إنه ابن أخت أمين بك الرافعي ، ولن ينالنا أذى مادام معنا .

ومن حسن الحظ أني كنت إلى جواره . لا أدري لماذا سعدت بذلك مع أن هذا الشاب في جملته لم يكن يعني بالنسبة لي شيئا . ولكني حظيت بطيبي مشجعا أحب تأمل

الناس والأشياء من قرب . وهذا الشاب فرحة . وكان موقف أنا ومجاهد جوار الحائط الأيسر عند مدخل الحافظة . فكنا نرى المدخل والداخل والخارج . بل كنا نرى من خلال الجنود جانبا من باب الخلق .

وقال مصطفى كامل : حافظوا على الفدوه . وسوف أنا أقاتلهم مع هؤلاء المخلين .

ويبدو أن الكونستابل حلوف استراح لهذا الشاب . وهؤلاء الأرمن والمالطيون كانوا ولهم كل شئ على حكة وزارة . ولهذا كان الإنجليز يدعونهم يتصرفون فى هذه الحالات .

وفى العادة لايميل الإنجليزى إلى خوض معاركه بنفسه . بل يستعمل غيره فيها . وقد استولوا على الهند بالجنود . ونصف قوة الجنرال ولسلى التى دخلت مصر كانت من السيخ والجوركا الهنود .

وقال الكونستابل حلوف :

– اسمع يا ولد .

وقال مصطفى كامل

– أنا لست ولدا .

– لا مؤاخذة . . ما اسمك ؟

وهتف الطلاب

– مصطفى كامل

– كويس اسمع يا مصطفى كامل . قل لأولئك التلاميذ أن يلزموا الفدوه . قد نستطيع أن نحصل لهم على العفو إذا لزموا الفدوه . .

– إننا لا نريد عفوا . . نحن نطالب بحقوق مصر . .

وغشيا مع ما يتطلبه الموقف من حدوه قال الكونستابل :

– ستأخذونها حقوق مصر . كلها . فقط الزموا الفدوه حتى يعرض الأمر على سعادة الحكمدار .

– ومسل باشا ؟ نحن لانخضع لرجل إنجليزى . .

– إذن فسعادة الحافظ . .

وقال طالب .

– إنه انجليزى أيضا . .

– لا . . الحافظ مصرى واسمه محمود

– مش معقول يكون محافظ ومصرى . .

– قلت لك إن اسمه محمود باشا

وقطع مصطفى كامل الحديث قائلا :

– هل سيأتم الطلبة هكذا فى العراء ؟

– سأتيكم بطاطين لأن التخشيبة ملأى . .

وقال مجاهد :

– ونريد أن ناكل . .

– سيوزع عليكم الخبز . فقط الزموا الفدوه

وعاد مجاهد يقول :

– أنا أستطيع أن آتى بطعام لكل هؤلاء . .

وقال مصطفى كامل .

– أنت لا تقول شيئا . هم حبسونا ظلما وهم ملزمون بنا . .

– أصلى ابن الحاج أمين مجاهد

وصاح شاويش :

– الحاج أمين مجاهد صاحب مخابز مجاهد فى درب سعادة ؟

– أبوه . . والنبى يا شاويش أرجوك أن تبلغ أبى وأمى أننى هنا . .

وقال الشاويش :

– حاضر

وصاح الكونستابل .

– احرس يا شاويش . . كيف تقول للتلميذ محبوس تحت التحقيق . حاضر .

– أصله ابن الحاج أمين مجاهد . .

– وإيه يعنى ؟ . .

– الحاج أمين مجاهد بك سعادة الكونستابل عنده أكبر مخابز مصر . وهو الذى يأخذ منه كل خبز الحافظة . . ولو علم أن ابنه هنا فلابد أن يطعم "كل هؤلاء ونحن معهم .

– خل هذا كلام يا شاويش ؟ . . دول مساجين فقط . وأنت محبوس يومين فى الزنزانة عقابا لك على هذا الخطأ . .

وساد صمت . . وانسحب الشاويش ، وقال الكونستابل :

– نريد الفدوه . لايهمنا الحاج مجاهد أو الحاج عفريت . قل لهم يا مصطفى كامل إننا سنوزع عليهم بطاطين وخبزا .

– لايمكن أن نحبس دون تحقيق . حققوا معنا أو أطلقوا سراحنا . .

وصفقنا جميعا لمصطفى كامل .

وقال الكونستابل : سنحقق معكم كلكم . ولكن التحقيق يستمر إلى الصبح . كل أقسام مصر مليئة بالطلبة المشاغبين . واللجنة تصل إلى هنا الساعة الثامنة مساء . . إذا لزمتم الفدوه لم نحقق معكم وأحرجناكم فى الصباح

وصاح طالب :

– يعنى بعد ثلاث ساعات . . نحن نموت من العطش ؟

وقال شاويش :

– عندكم حمسون حنفية فى دورة المياه . .

وكانت دورة المياه هذه أسوأ شئ يتصوره العقل . تصور أن فيها محل « أدب » وعددنا نحو ١٨٠٠ غير الشاويشية . . حاولت أن أقترب منها فكاد يغمى على . فعدت مكانى . ثم يقول لنا هذا الشاويش أن نشرب منها . .

وقال مصطفى كامل :

– إذن فعلى الأقل هاتوا لنا كيزانا نشرب فيها .

– مافيش كيزان . .

وبعد دقائق رأيت عربة تقف بعيدا عن باب السجن . ويتقدم شيخ أشيب يلبس جلبابا وطاقية ويقول :

– أنا عم إسماعيل السمكرى فى تحت الربع . يلغى أن أولادنا فى حاجة إلى كيزان . أحضرت لكم ٢٠٠ كوز . وجارى ابراهيم سيأتيكم بقلل . نحيا مصر .

ووصلنا الكيزان ، ثم جاءت القلل بالمئات ملأى بالماء . .

وشيئا فشيئا بدأ أهل باب الخلق والدرب الأحمر وشارع سعادة وشارع الصعد على وتحت الربع يتجمعون رجالا ونساء أمام باب الحافظة .

وصاحت سيدة بدينة ليس ملاية لف :

– عاوزين حاجة يا أولاد ؟

وبنفس واحد قال الذين تجمعوا :

– نريد أن ناكل يا ست . .

– عيشة ، التى حارسكم . . بت يا إنصاف . بت يا إحسان . . بت ياروحية . . كلكم يابنات هاتوا اكل لاولادكم واخواتكم .

ومن بين صفوف النساء برزت سيدة وقالت :

– فين مجاهد ؟ . . فين ابن مجاهد ؟ .

وعرفت صوت السيد نفيسة هانم أم مجاهد . .

وصرخ مجاهد كأنه طفل ناله عنز على أنفه .

– انا هنا يا نينا . . ! الحقينا يا نينا !

وضحك الجميع حتى الكونستابل حلوف . .

وقال مصطفى كامل وإبهامه وسبابته فى جيب الصديرى :

– احتذى يا ولد . . أنت مجاهد فى سبيل الوطن . ولايجوز لك أن تتصرف كأنك طفل .

وقال مجاهد . .

– ذى نينا . . ذى أمى

– مافيش هنا نينا ولابابا . . نحن لسنا أطفالا . .

وقالت السيدة نفيسة بحكمتها ورزانتها التى أعرفها .

– عندك حق يا جدع . . أنت ابن مين . .

– أنا ابن مصر

– براوة عليك . . أنا يا ابنى أمكم كلكم حرم عمك الحاج أمين مجاهد . . لم آت لابنى فقط بل لكم جميعا . . أتيت لكى أرى إن كنتم بحاجة لشئ . . خير ربنا كثير والدنيا خير .

وقال أحد الشاويشية :

– عاوزين فطير ياست هانم .

– كل ما تريدون : خبز وفطير وبطاطين . . المهم ألا تخافوا . .

وقالت :

– مجاهد . . فين حسين ؟

– هاهو ذا الى جانبى . . أمسكوا به معنا . .

– مادام معك فلا تخف . . بعد دقائق يأتى الخبز . وكلها ساعة وسآتيكم كلكم بفطير .

وقال الشاويش :

– دول ألفين ياهانم . .

– حتى لو كانوا عشرة آلاف دون أولاد مصر . .

– واحنا . . ؟

– أنتم كذلك أولاد مصر ، ولكن لقمة العيش حكت عليكم . .

– طيب واللى عايزين فطير ياست هانم . .

وقال أومباشى جهم الوجه :

– عيب يا شاويش . . الحكومة غنية وأنت شاويش . .

وقال له الكونستابل حلوف :

– دعه يا أومباشى . . وماذا يضرك أن يتولى الناس أمر إطعام هذا الخيش . . أنت تعرف الحكومة . . لو انتظرنا لما وصل الأكل إلا فى منتصف الليل . . وهؤلاء جيش يمكن أن يهدم السجن . .

وقال الشاويش :

– أى والله ياكونستابل . . قل للأومباشى . . على الأقل نأكل مرة أكلا مختمرا على حساب الأولاد . تعرف يا كونستابل . من حسن الحظ أننا أمسكنا اليوم أولاد أغنى تجار البلد : أولاد المرجوشى والمراغى والمناديل والجمال والقماش والخمصانى . . وناس آخرين كلهم مال . . وهؤلاء فى طريقهم لإنقاذ أولادهم . ومعهم فى الخبز . مرة تتمتع . .

وفى لحظات انتشر الخبز فى هذا الجمع الحاشد . وابتسمت الوجوه وساد السرور وضحك التلاميذ مع الشاويشية لأن المطاعم اللذيذة فى الطريق . وعندما سمع الطلاب أن ابن عم عنتر الكبابجى مسجون معهم زادت المسرة وهاصت الدنيا . وصعد التلميذ على منصة بلى منولوجات تحية للكباب المنتظر !

البقية فى العدد القادم